مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــ المجلد: 12 / العـدد:01 (مـاي 2024) ص 996 –1009
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

مراجعات التراث البلاغي بين المفهوم والمنهج

Rhetorical Heritage Reviews between Concept and Method

شعابنة جوهرة [1]، الدكتور : شراف شناف [2]
djouhra.chaabna [1], charafchanaf [2]
1– جامعة باتنة 1 (الجزائر)، djouhra.chaabna@univ-batna.dz
2– جامعة باتنة 1 (الجزائر)، charafbatna@yahoo.fr
مخبر الشعرية

تاريخ الاستلام: 2022/06/17	تاريخ القبول: 2023/11/08	تاريخ النشر : 2024/05/16

الملخص: يسعى هذا البحث إلى استكشاف مفهوم عملية التجديد التي طالت في العصر الحديث التراث البلاغي العربي، منطلقة من عملية القراءة التي تسعى إلى إعادة إنتاج المقروء، معتمدة أجهزة مفهومية وآليات متنوعة بتنوع الخلفيات القرائية والمرجعيات المعرفية للناقد نفسه، ثم بعد ذلك يحاول البحث تقديم قراءة في منهج الدراسات الحداثية المقاربة للمدونة البلاغية العربية وطبيعتها وما إذا كانت قد ظلت مجرد مشاريع ومحاولات قراءة؟ أم أنها خرجت عن أطرها النظرية إلى ممارسات ونماذج إجرائية واقعية ومنتجة؟

وقد توصلنا إلى أنها انقسمت في معظمها بين دراسات لم تخرج عن دوائر الوصف والتأريخ والتفسير، وأخرى لسانية بنيوية اتسمت إلى حد بعيد بالوعي النظري بموضوعها، واستطاعت خلق سبل موازنة بين المدونة البلاغية التراثية وآليات النقد الحداثية وأجهزته ذات المنابت الغربية.

الكلمات مفتاحية: تجديد؛ تراث بلاغي؛ منهج تاريخي؛ لساني.

Abstract

This research seeks to explore the concept of the renewal process that affected the modern Arabic rhetorical heritage, starting from the reading process that seeks to reproduce the read, relying on various conceptual devices and mechanisms with the diversity of reading backgrounds and cognitive references of the critic himself. Then, the research attempts to provide a reading of the approach of modern studies to the Arabic rhetorical corpus and its nature and whether it has remained just projects and attempts to read Or did it depart from its theoretical frameworks to realistic and productive procedural practices and models?

We have concluded that it was mostly divided between studies that did not depart from the circles of description, history and interpretation, while others structural linguistics characterized, to a large extent, by the theoretical awareness of its subject matter, and was able to create ways of balancing between the traditional rhetorical code and the modern criticism mechanisms and devices with Western origins.

Keywords: Renewal, Rhetorical Heritage, Historical Method, Linguistics.

المؤلف المرسل: شعابنةجوهرة ، **الإيميل:** djouhra.chaabna@univ-batna.dz

1.مقدمة:

احتل هاجس تجديد التراث البلاغي العربي مساحة رحبة من وعي أجيال متلاحقة من النقاد والدارسين العرب في سعي حثيث إلى تفنيد الأقاويل المنادية بموت البلاغة، والتي بايعت معارف نقدية جديدة، ومدارس لغوية لتحل محلها، فظهرت على الساحة المعرفية –الأكاديمية خاصة –مؤلفات كثيرة ومهمة، قدمت مقاربات متنوعة المرجعيات والآليات لتاريخ البلاغة العربية ونظرياتها، وأسست لمحاولات قراءة تجديدية متنوعة الرؤى والمنطلقات والأهداف، بدءا ببواكير أعمال "شوقي ضيف:" (البلاغة تطور وتاريخ)عام 1965م، ومحاولة "عشري زايد "عام 1977م للتأريخ لتطور البلاغة العربية ومناهجها في "البلاغة العربية تاريخها، ومناهجها، وتطورها" وصولا إلى المقاربات الأحدث "لمحمد العمري "و "حمادي صمود"، لتتراوح معظم هذه الدراسات بين وصفية تأريخية، وتحليلية تتبنى المناهج الغربية الألسنية والبنيوية الحديثة، لذلك تحاول هذه الدراسة البحث في مفهوم التجديد وبواعثه ودواعيه، وأهم المناهج التي سارت في فلكها مشاريع تجديد التراث البلاغي العربي.

2. في مفهوم التجديد ودواعيه عند المحدثين.

1.2–مفهوم التجديد:

لقد عجت المؤلفات النقدية البلاغية الحديثة بمصطلح (التجديد)وهو ما لم يعهد عليه في كتب البلاغة القديمة، فبالعودة إلى المعنى اللغوي فالتجديد :من الفعل (جدد)، يقال " :تجدد الشيء صار جديدا، وأجده وجدده واستجده أي: صيره جديدا ."(بن مكرم بن منظور الإفريقي، صفحة 111)

و "جد الشيء في أعين القوم :عظم"(بن مكرم بن منظور الإفريقي، صفحة 108)، وبناء على ذلك فإن التجديد معناه :جعل ما هو قديم جديدا.

ولا يتأتى ذلك إلا من خلال إماطة ما علق به من ضعف وقدم ثم دعمه وتجديده بما يعززه ويجعله مناسبا للعصر تحسينا وتعديلا، "فالتجديد ليس إلا مواصلة النماء من حيث وقفته عوامل جمود، وليس يستبين المجدد طريقه ولا يدري من أين يبدأ جهاده، إلا إذا استجلى تاريخ ما يعاني تنميته، وعرف كيف ومن أين بدأت حياته، ومتى؟ ولم وقف به الجمود؟ "(الخولي، 1961، صفحة 143)

وهو ما يتيح لمشروع التجديد التمثل التام للنصوص التراثية وسياقاتها، وبناها المعرفية، ثم من بعد ذلك تبين المواضع الجديرة بالمراجعة، والقابلة للتجديد ومنه تحديد المقاصد فهو "إذ ذاك ينفي ويثبت عن بصيرة، ويبتر مظاهر الجمود في هدي وثقة ...فأصدق عمل المجدد أن يعرف أن وراءه تاريخا يستطيع أن يتعلم منه أشياء كثيرة."(الخولي، 1961، صفحة 143) متى ما استوعب مدونته وأحاط وعيه بجميع سياقات إنتاجها وتطورها.

فالتجديد تحرير التراث ليعود طليقا بعد الأسر في القوالب التعليمية، والأغلال التقعيدية، وبعث الروح في مناهجه، وإصلاحها في إطار ما يتيحه المعطى التراثي دون قسر ولا تعسف بتقويله ما لا يتحمل، فيجمع النقاد ودارسوا البلاغة العربية أن معضلة هذه الأخيرة هي مسائل الفلسفة والمنطق التي أقحمت فيها، وكثرة التقسيمات وتشعب الفروع وهو ما يقودنا للحديث عن دواعي تجديد التراث البلاغي العربي.

2.2- دواعي تجديد التراث البلاغي العربي:

يجمع الباحثون في ميدان البلاغة العربية من دعاة التجديد وغيرهم على أن أسباب محاولة إعادة قراءة التراث البلاغي تكمن فيه على وجه التحديد، أو هي مشكلات في ذاته منها :

أ" .**جمود البلاغة العربية وتعقيدها:** (الكواز، 2008، صفحة 268)"حيث يجمع النقاد على أن البلاغة العربية في مراحلها الأخيرة اتسمت بالجمود والجفاف والتكرار والتعقيد، ومرد ذلك "تشأة البلاغة في بيئة المتكلمين والأصوليين، وكون أكثر علمائها من غير العرب"(الكواز، 2008، صفحة 268)، بالإضافة إلى أثر الفلسفة والمنطق وارتباط البلاغة العربية بقضية الإعجاز في القرآن الكريم.

ب" .سمة الإجتزائية، في البلاغة العربية: (الكواز، 2008، الصفحات 268-269)"لقد تنبه الباحثون مبكرا إلى وقوف البلاغة العربية وحكمها عند حدود الجملة دون أن تتعداه إلى مجمل النص الأدبي، ولعل هذا الاقتصار على الجملة أو البيت الشعري قد كان مما اقتضته المناهج من ضرورات آنذاك "فالدارس في ممارسته العملية لمفهوماته التنظيرية يلجأ –بالضرورة –إلى اختيار مفاهيمه من خلال اجتزاء الشاهد، وهذا أمر مسلم به على مستوى الخطاب البلاغي القديم(عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، 2007، الصفحات 19-20)"،إلا أن دعوى اقتصار البلاغة العربية على حدود الجملة لا ينفي أبدا تاريخها الطويل وجهود علمائها الذين حاولوا أن ينظروا إلى النصوص الأدبية نظرة شاملة، ملمة ."ومما لا يخفى على نبيه أن "الخطاب البلاغي الجديد، على الرغم من كثرة ما ترجم من الأسلوبيات والبنيويات، لم نصادف منها ما يتعامل مع النصوص الكاملة تحليلا وتفسيرا وإنما كان الاجتزاء سمة تميز هذه الدراسات(عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، 2007، الصفحات 20-21)."

ج .معيارية البلاغة العربية: (الكواز، 2008، صفحة 268)لقد طالت البلاغة العربية دعاوى كثيرة من أكثرها ترددا على الألسن وفي المؤلفات، وصفها بالعلم المعياري الذي يرسل الأحكام وفق معايير مسبقة واستنادا إلى "قواعد تحفظ عن مقتضى الحال والتشبيه المفرد والمركب، والمجاز، والاستعارة التمثيلية، والكناية، والخبر والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز والاطناب والمساواة، وغيرها من الأبحاث"(عيد، 1989، صفحة 111)، لتتحول إلى ما يشبه الصناعة الآلية التي جمدت فيها الأمثلة "والشواهد ليتداولها اللاحق عن السابق من المؤلفات دون تغيير أو

تطوير، فأورد الشارحون والدارسون الأمثلة والقواعد كما وصفها "السكاكي "منذ القرن السادس والسابع الهجريين، وهو ما يفضح عيبا خطيرا في دارسي البلاغة المحدثين، إذ لم يتوقف –إلا الأقلون –ليتساءلوا ويعيدوا النظر في القيمة العلمية لهذه الدراسات في ذاتها؟ أو عن قيمتها في ارتباطها بالواقع العلمي في الانتاج الأدبي المتطور باستمرار .إلا أن إطلاق حكم المعيارية بهذه الطريقة، لا يحجب حقيقة أن هذه المعيارية أسهمت في صون اللغة الأم، والحفاظ على فصاحتها وبلاغتها، فقللت من محاذير اللحن، والأخطاء في العبارة.

3. تلقي البلاغة العربية في العصر الحديث بين السرد التاريخي، والمقاربات اللسانية البنيوية:

عرفت العقود الأربعة المنصرمة اهتماما متزايدا على الساحة المعرفية العربية بالدراسات البلاغية لأسباب منها ما هو مادي أكاديمي مرده "تزايد الاهتمام بالتعليم الجامعي ...والتوسع في إنشاء جامعات، ومراكز بحوث، ومعاهد عليا، فيما يشبه الطفرة التعليمية"(عبد اللطيف، 2021، صفحة 257)، التي كان للدراسات الإنسانية، وعلوم اللغة العربية نصيب وافر منها، وهو ما يعني التزايد الكمي الكبير في البحوث والمنشورات وكذلك في الجانب الكيفي .إلا أن العامل الحاسم حسب الدكتور "عماد عبد اللطيف "هو تزايد الدراسات المهتمة بالبلاغة وازدهارها في الجانب الغربي، لتصبح حقلا منتجا نشطا في الأكاديميات الأجنبية، فتزايد الاهتمام العربي بهذا الحقل فيما يشبه ثنائية الصوت والصدى في العقود الثلاثة الأخيرة.

فكانت هذه المنظورات والمناهج والأطر البلاغية المعاصرة المستوردة، قواعد لمقاربات جديدة للبلاغة العربية، قدمت لها آفاقا واعدة، بمحاولة الحفاظ عليها وإبرازها بصورة مغايرة بما يتوفر لها من معرفة وإحاطة بهذا التراث، ومعارف جديدة أخذت من منابتها الأصلية، لاسيما الفرنسية، والايطالية، والروسية، والألمانية.

فعقب انفتاح الأبواب مشرعة على الثقافة الغربية، ظهرت على الساحة المعرفية والثقافية نقاشات وجدالات حول أنجع المناهج والأدوات لمقاربة التراث البلاغي واللغوي، فتعددت الطرائق وتباينت الإتجاهات والمرجعيات بين نقاد اختاروا منطقة الأمان بمراجعة التراث دون الجنوح إلى إخضاعه للمناهج الحداثية بغية الحفاظ عليه كما كتبه الأقدمون وكما وصل إلينا، وآخرين حاولوا تقديم صورة جديدة للبلاغة العربية عن طريق الإستعانة بمعطيات الدرس اللساني الحديث. فشاع كنتيجة لهذا الإختلاف في الرؤى والغايات مصطلح "القراءة" في كتابات النقاد والدارسين تبعا لتنوع وعي الذات القارئة وإدراكها للمدونة التراثية.

وفي هذا الصدد يعزو الناقد "جابر عصفور" في كتابه النقد الأدبي شيوع مصطلح القراءة في تلك الفترة إلى تفعيل وترسيخ الدور الرائد والجوهري الذي أصبح يقوم به القارئ في عملية القراءة فطبيعة هذه العملية المعرفية تربط القارئ بالمقروء بغية إنتاج المعرفة؛ إذ لم تعد القراءة ذلك الفعل المكرور الذي يتقصد تصيد المعلومة جاهزة

بل أصبح لكل فعل قرائي عمله التفسيري و التأويلي و أصبحت كل قراءة محاولة إنتاج لمعرفة جديدة، عدا تلك القراءات التي لا تتغلغل إلى صلب المدونة أو النص فلا تتجاور الشرح والتعليق والتلخيص وبعض التعقيبات .

إن من بين ما تجدر الإشارة إليه ان ما كان متفقا عليه في تلك المرحلة المفصلية، ورغم تباين التوجهات وتعارض المواقف إلا أن قيمة التراث البلاغي ووزنه كانا أمرا محسوما فقد شكلت الكتب التراثية كنوزا لا ينقصها إلا عقول تمتلك العدة الكافية والملائمة لاستخراج معارف لا تزال قائمة إلى اليوم.

هذا ولم ترد محاولات التجديد هذه في صيغة واحدة، ولا في بنى ثابتة وموحدة، وهو ما يدفع هذا البحث إلى تضييق دائرة الحديث عن مناهج الدراسات التجديدية الحداثية للتراث البلاغي، على توجهين أساسيين كانا من الأهمية بمكان في تكوين مشهد الدراسات البلاغية الحديثة و المعاصرة.

1.3- الإتجاه الوصفي التاريخي:

يمكن اعتبار هذا النوع من الدراسات السردية التاريخية بداية بروز التلقي العربي للتراث البلاغي في العصر الحديث وفق مناهج معينة فحاولت تقديم كتابات وصفية تاريخية مفصلة له، تجمع مراحل تطوره وتحاول ترتيبها وتوصيفها تعقيبا وتعليقا ،تمهيدا لمبادرات تقويم البلاغة العربية ومراجعة المدونة التراثية الزاخرة ،واقتراح البدائل المعاصرة، وبناء طريقة في الأداء والبناء مغايرة بغية تخليصها من دعوى كونها "ذلك المفهوم الذي يجعل منها زينة ومعارض حسنة تنضاف إلى المعنى كالمساحيق لتزيد من بهجته وإقبال الناظرين عليه دون أن تؤثر في معناه وتخرج به من مدار إلى مدار (صمود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، 2015، صفحة 64)، تلك الدعوى التي وسمت البلاغة ومسائلها بالتقعيد وخرجت بها إلى دوائر التعقيد والجفاف.

من جانب آخر فإن التأريخ للبلاغة العربية، كان مسألة ملحة فرضتها اعتبارات أهمها اثنان :

- **اعتبار عام "واقعي تاريخي:**(العمري، 1999، صفحة 7)"مرده قلة الدراسات المنجزة في هذا الحقل سواء كانت سردية وصفية أو غير ذلك من دراسات تعنى بالتأريخ للعلوم وتحقيبها وتصنيف أقسامها وتوضيحها، باستثناء أعمال قليلة لم تكن كافية لتشكل قاعدة واسعة، ولبنة صلبة لإقامة صرح البلاغة الجديدة.
- **اعتبار خاص "تراثي منهاجي:** (العمري، 1999، صفحة 7)"ذلك أن تطور المعطى المعرفي، وتغير الأسئلة المطروحة على الأدب، يفرض آليا إعادة الكتابة بتجدد القراءة وسياقاتها .فالماضي نص مفتوح للقراءة باستمرار.يتشكل ككيان لغوي قائم بذاته بفعل منظومة دوال مترابطة متكاملة، وما إعادة قراءته إلا تحيين لرسالته وتفكيك لمضامينه لإعادة إنتاجها بما يتوافق مع روح العصر وهي

بذلك إثبات لاستمرارية وجوده، وبحث في مدى قابليته للإجابة عن أسئلة يطرحها العلم الحديث؛ فبين دفات الكتب والمدونات البلاغية القديمة معارف كثيرة قابلة لتقديم إضافات للخطاب البلاغي والنقدي الحديث والمعاصر، لا تحتاج سوى لقراءة عميقة فاحصة ودقيقة، وإعادة ترتيب وصياغة منهجية تعرض للباحثين جوانب الحداثة والمعاصرة فيها.

ولعل الكاتب والناقد "شوقي ضيف "من أحسن ممثلي هذا التوجه البلاغي، حيث نشر في أواسط الستينات كتابه (البلاغة: تطور وتاريخ) وهو محاولة للإحاطة بمراحل البلاغة العربية منذ بداياتها الأولى بتتبع مفصل لتطور الشعر واللغة، ويصفه "محمد العمري "بأنه "أحد الجسور البلاغية التي ينبغي إعادة صياغتها اليوم، وتكميلها أو حتى ترميمها."(العمري، 1999، صفحة 8)نظرا للدفع الكبير الذي قدمه للمشهد البلاغي حينئذ.

إضافة إلى أن قارئ هذا المؤلف العلمي القيم يتبين عدم اقتصاره على السرد التاريخي البحت، إنما مع سعي واع وحثيث لربط حلقات المرحلة التاريخية بمثيلاتها، ومحاولة تتبع تاريخ البلاغة العربية في داخل السياق الأدبي العام الذي نشأت وتطورت.فيه ثم بعد ذلك تصوير الترابط الوشيج بينها وبين الأدب حتى انتهيا معا إلى الجفاف والجمود.

يورد الناقد "حمادي صمود "كلاما في غايات الموسوعي "شوقي ضيف "من تأليف كتابه محل حديثنا مفاده باختصار:

"خدمة التراث بتقديم تعريفات له ولأعلامه، وتحديد كل حلقة من حلقاته ممثلة في منجز أو مؤلف بلاغي قيم للحث على مواصلة البحث فيه"،(صمود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، 2015، صفحة 65) مع مراعاة إبراز وجوه الوصل والتشابك بين كل مرحلة وحقبة انطلاقا من تصور ضرورة الوصل والإستمرارية في أي علم، ورفض القطائع المعرفية التي تسوقه في طريق التحولات الخاطئة، وتغير الأسس التي تبنيه.

ضف إلى ذلك "تأكيد الترابط العميق والاتحاد في المصير بين البلاغة والأدب ."(صمود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، 2015، صفحة 65)

إذ يشير شوقي ضيف إلى أن القصيدة الشعرية والنص النثري هما المتوسلان في التطبيقات البلاغية أكثر من غيرهما، ففيهما تبرز آثار الأساليب المتوخاة، والمسالك المنتهجة في بناء الوجه والصورة البلاغيين، وإجراء العبارة، وتحصيل المعاني .فعلى قدر ما تتسم به تلك الأساليب من حدة وحيوية وخيال يكون النص شعرا أو نثرا متمكنا في نفس قارئه، وقويا في جنسه.

وعلى قدر الإبتعاد يكون النص متكلفا يغلب عليه التطبع وفساد الذوق.

إن الملاحظ أن منهج "شوقي ضيف "في تلقي البلاغة العربية غلب عليه الجانب التاريخي، فهو في معظم ما أنجز يحاول أن يكتب تاريخ هذا العلم، باستثناء بعض الدراسات كبحثه حول مسألة التأثير اليوناني في الدرس البلاغي العربي، وبعض مشكلات البحث البلاغي في العصر الحديث.

ولما كان موضوعنا يدور في فلك تلقي التراث البلاغي في مجمله، فإننا نرفع الحديث عن كل الجهود والدارسين لكثرتها وتشعبها، فقد كان ل"شوقي ضيف "سابقوه في نفس المنهج والتناول "كأحمد مصطفى المراغي"، وجاء من بعده كثر حاولوا دراسة تطور الفكرة البلاغية عند العرب مثل "بدوي طبانة "و"عشري الزايد "وغيرهم... ممن قدموا دراسات كانت بحق قيمة ،وأسهمت إلى حد بعيد في تقديم البلاغة العربية وتاريخها ميسرة ومنظمة إلى القراء، وفتحت المجال أمام الباحثين لخوض غمار البحث والتنقيب في المدونة التراثية البلاغية دون تهيب ما كان يطبعها من غموض وتعقيد وضخامة في مدونتها.

2.3- الإتجاه الألسني الحداثي:

لقد ظهرت للوجود دعوات إلى قراءة رصينة للتراث البلاغي العربي بما يتوافق مع تطور المناهج النقدية الغربية، مع الإستعانة بالمؤلفات العربية صاحبة الفضل في تبويب وتقعيد كثير من مسائل هذا العلم، فقد "أصبح محتما أن يتجه البحث في البلاغة القديمة على نحو يربطها بالبحث اللساني"(عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، 1994، صفحة 1)الحديث والإفادة في ذلك بكل العناصر الموروثة، فرغم الإساءة التي لحقت كثيرا من مباحث البلاغة العربية، ما تزال تحافظ على جديتها وأهميتها، وما تزال تلك المنظومة المعرفية الهائلة من النظريات والقضايا متاحة للدارس ليعيد النظر فيها على ضوء المناهج اللسانية والبنيوية الجديدة "فلا شك أن للمعالجة البنيوية اللسانية، جدوى كبيرة في استخراج هذه الأنساق وتفسيرها بفعالية."(العمري، 1999، الصفحات 9-10)

وهو ما يلزم للوقوف على ما يتضمنه التراث من قضايا متطورة وصالحة لعصرنا، تتوافق مع أحدث ما استجد على ساحة البحث اللغوي والنقدي. هذا وإنه لحري بالإشارة أن بدايات تناول التراث البلاغي العربي مقاربة وتحليلا قد كانت متأخرة بشكل جلي إذا ما وضعت في ميزان المقارنة مع التراث النحوي العربي، إذ حضي هذا الأخير بنصيب وافر من الأبحاث والدراسات بمجرد انتشار المنهج البنيوي في الدراسات اللغوية العربية الحديثة في مطلع ستينات القرن العشرين من خلال جهود بعض رواد الباحثين منهم على سبيل الذكر لا الحصر: "كمال بشر" و"تمام حسان " و"عبد الصبور شاهين "وغيرهم.

وسنقتصر في هذا البحث على نموذج وقع اختيارنا عليه لتعامله مع التراث في شموليته بعيدا عن المناهج الخارجية التي غلب عليها المنهج التاريخي، هو الناقد التونسي والبلاغي الأكاديمي "حمادي صمود ."ففي حين أن الدراسات التجزيئية التي درست البلاغة العربية كثيرة ويصعب الإحاطة بها، كان مشروع "صمود "محاولة لتفسير التراث البلاغي العربي وتأويله في كليته وفق مقتضيات الدرس اللساني، ومعطيات البنيوية الحديثة، "فليس من سبيل إلى)تأصيل الكيان (والتعمق في فهم التراث وتعيين ما يقوم فيه من ناصع المعالم ومشرق الأنحاء، إلا الإنغماس في العصر والتوسل بلغته والاهتداء بمفاهيمه، على أن يكون ذلك معرفة عميقة لا تستسهل صعبا، ولا تستعجل نفعا(صمود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، 1988، صفحة 6)"، "فصمود يؤكد من خلال قوله هذا أنه ما من مدخل للعصر غير العصر، وما من انسجام بين التراث والحداثة إلا وفق المناهج الحداثية الألسنية والبنيوية التي ترتكز أساسا على دراسة النص والأدب بصفة عامة على أنه ظاهرة لغوية متكاملة، وتشكل نظاما شاملا له نظمه وتعالقاته الداخلية ، وتحليله ومقاربته وفق منهج معين يعني إدراك عناصره ومكوناته الداخلية ،والعناصر المنهجية التي تم تركيبها بشكل معين لأداء وظيفة جمالية معينة.

فالناقد لم يخض غمار إعادة قراءة التراث البلاغي إلا وقد "بدأ كما يجب أن يبدأ بقراءة نصوص الشكلانيين وفهم حملها المعرفي ...ثم دبت إلى نفسه الحيرة فصوب نحو المدرسة الاجتماعية ...ومن (غولدمان)إلى الانشائية الفرنسية فقرأ (بارط) ... وقرأ (تودوروف)واستهوته مؤلفات (جينات)...

وانغمس في متن النقد الحديث لا يزال يقرأه "فكانت هذه المدارس النقدية بمناهجها ونظرياتها وأدواتها عدة الناقد في مشروعه لتجديد وتحيين الدرس البلاغي العربي القديم، فشرع الباحث حمادي صمود دراساته وأبحاثه حول الدرس البلاغي القديم والحديث، والعربي والغربي بمراجعة التراث البلاغي بقراءات نقدية فاحصة ومحكمة منذ سبعينيات القرن الماضي، بداية ببواكير جهوده وهي أطروحته التي قدمها لنيل درجة الدكتوراه وسنعود للإسهاب في الحديث عنها في موضع لاحق من هذا البحث. كما ألف "الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة " (1988)، و "دراسات في الشعرية: الشابي نموذجا" (1988)، كما شارك في تأليف كتابين جماعيين هما: "النظريات اللسانية الشعرية من خلال النصوص"، و " في نظرية الأدب عند العرب" (1955).

أما انطلاقته الحقيقية في مراجعة التراث البلاغي العربي كما أسلفنا الذكر فقد كانت مع اللبنة الأولى لمشروعه وهي أطروحته الموسومة (التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى نهاية القرن السادس – (مشروع قراءة))، والتي صدرت ضمن منشورات الجامعة التونسية سنة (1981)، وقد جاء مشروعه في فترة برزت فيها مؤلفات كان منها ما تتبع الخطوط الرئيسية للبلاغة العربية ومسائلها والتأريخ لمراحلها، وأخرى تتبعت علاقة

بعض قضاياها بمثيلاتها في البلاغة الغربية، لكن ورغم القيمة المعرفية الكبيرة لهذه الدراسات حسب "صمود "إلا أنها "لا تخلوا على أهميتها من النقص، فالآثار التي تروم الإلمام بمختلف مراحل البلاغة نشأة وتطورا قليلة ...كما قد باشرت المسألة من زاوية تأريخية حدثية أضعفت جانب التأليف والإستنتاج، كما أنها لم تعتن عناية كافية بالأسس التي يقوم عليها التفكير في جمالية اللغة عند العرب."(صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، 1981، صفحة 10)

وهو الخلل الذي حاول الناقد "حمادي صمود "عدم الوقوع فيه بتحري "مباشرة التراث من منطق التفاعل بينه وبين الحداثة، قصد فهمه في ذاته واستجلاء أبعاده النظرية ...ثم لمحاصرة مظاهر المعاصرة فيه والتي يمكن استحضارها اليوم" (صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، 1981، صفحة 11)، وهو ما شرع في محاولة الإرساء له من خلال أطروحته (التفكير البلاغي عند العرب) التي تعد عملا قيما ومشروع إعادة بناء، كونها تشريحا علميا للمدونة البلاغية التراثية، فلم يكتف الناقد بمجرد السرد التاريخي والوصف التعليمي لمضامينها، بل كان يسعى جاهدا في كل مرحلة إلى الخروج بأحكام تقريرية، ومقاربات تقييمية وناقدة في أغلب الأحيان مستعينا بتوظيف حسه النقدي وحنكته المعرفية الذين اكتسبهما من احتكاكه الدائم بالنصوص الأصلية للبلاغة العربية.

حيث يتألف الكتاب من ثلاثة أقسام كبرى، ورد أولها حول موضوع (البلاغة قبل الجاحظ)، فيما تناول الثاني (الحدث الجاحظي)، وهو أكبر الأقسام وأهمها، ليكون القسم الثالث حول (البلاغة بعد الجاحظ).

أما عن هذا الوجه من التقسيم فقد اضطره تشعب القضايا على امتداد الفترة الزمنية التي يعنى بها كتابه، واختلاط كليات العلم بجزئياته، إلى البحث عن نقطة ارتكاز كمحور لبحثه، تشمل ما قبلها، وتطل على ما بعدها، فوقع اختياره على "الجاحظ "ليكون نقطة الإرتكاز اللازمة، ويبرر اختياره هذا بكون الرجل الموسوعي أول "من وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي، بحيث تبقى الفترات التالية تستلهم مادته، وتستحضر مقاييسه"(صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، 1981، صفحة 12)، كما أن مؤلفاته أقدم ما وصلنا من الكتابات التي تهتم بأفانين القول والتعبير، وهو أول مؤلف خصص جهدا لدراسة الكلام البليغ، وضوابط المستوى الفني من اللغة..

ومن منطلق هذه المركزية التي وسم بها التفكير الجاحظي فقد تركزت قراءة الدكتور حمادي صمود في أطروحته على آراء الجاحظ في بلاغة البيان حيث بحث بإمعان في الحجاج والجدل المنطقي، واهتم أيما اهتمام

بالمتكلم كمنشئ للخطاب، إلى جانب تركيزه على الحدث الكلامي وسياقاته ثم قسم التفكير البلاغي العربي في مجمله على ثلاثة محاور كبرى هي: المفاهيم والمنهج والإجراء.

لقد حاول "حمادي صمود "البحث في تمظهرات المقولات اللسانية والبنيوية في التفكير الجاحظي الذي تحدث فيه عن ضروب الدلالات والعلامة اللغوية، وثنائية (المقام/الحال) و(اللغة /الكلام)، وهي موضوعات تناولتها اللسانيات في العصر الحديث منذ كتابات "دي سوسير"، آخذا بوجهة النظر الانشائية والأسلوبية، وجملة تصوراتها التي من أهمها:

اعتبار أن "اللغة أرقى الوسائل الإنسانية للتعبير، وهي نظام يستطيع الوصول إلى أكثر المعاني دقة وبعدا، وهي في إجراءاتها مستويان "أولهما لليومي من الحاجات والقريب من المعاني، وثانيهما لما زاد عن الحاجي والضروري(صمود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، 2015، صفحة 74)"، وإن البلاغة علم تلك الطرائق اللغوية، والأساليب المعدولة عن سمت الكلام لمخرج غير مخرج العادة والمألوف.

على هذا الأساس انصب الجهد الأكبر من كتاب (التفكير البلاغي) على "بيان مستويات تصريف اللغة، والفرق بينها في بناء المعنى بثا وتلقيا، ومراتب التأويل الضرورية للوصول من المعنى الذي يتبادر إلى الذهن " (صمود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، 2015، صفحة 74)الموسوم في ظاهر اللفظ، إلى المعنى الضمني الخفي .إلا أن الأمر لم يكن بالسهولة التي يبدو عليها فلقد واجه الكاتب تحديات كان أصعبها ذلك البون الواسع مسافة، وتفكيرا بين هذه التصورات المعتمدة (الأدوات والمقولات اللسانية والبنيوية)، وما في المدونة البلاغية التراثية الشاسعة من آراء ومواقف تضيق عنها تلك التصورات، لأنها تأتي من منطلقات مغايرة، وتستند إلى فرضيات مختلفة، وهو ما كان المؤلف منذ البداية في أطروحته يعد نفسه لمواجهته ببصيرة خشية الوقوع في "ضرب من الاستيلاب الثقافي، أو السلفية الفكرية الجديدة، إن هو لم يوفق إلى استخدام أجهزته المفهومية استخداما يحترم خصائص التراث، والسياق الذي يتنزل فيه، والأسس المعرفية القائم عليها(صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، 1981، صفحة 11)"، لاسيما أن هذه الأجهزة نبتت في منابت أخرى، ونشأت عن تيارات فكرية وإيديولوجية ورؤية للعالم تختلف عما هو موجود عندنا، فلم يجد بدا من الاستنارة بهذه الأجهزة مجرد الاستنارة لاستكشاف غوامض التراث، لا لقسره على الدخول رغما عنه في أطرها.

رغم هذا التنبه وما يبدو عليه الأمر من حيطة الكاتب من الوقوع في فخ الإسقاط كما أشار في مقدمة الكتاب، إلا أنه نصب الجاحظ سيد الحداثة في عدة مواطن، وهو يسم تفكيره بنقطة التحول في البلاغة العربية، إذ لا تقتصر أهمية ما "تفطن إليه على ما فيه من مظاهر الحداثة والمعاصرة، فقد اهتدى في وقت مبكر من تاريخ

العلوم اللغوية والبلاغية إلى ما لحق بظاهرة الكلام من الملابسات، وهو أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدر أن الكلام هو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد"(صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، 1981، صفحة 185) .أيضا وهو يصر على تصنيف بعض المقولات البلاغية التراثية على أنها فتح مبين في الدرس اللساني الحديث ففي سياق حديثه عن أصول نظرية النظم مثلا، يشير إلى أن منابت هذه النظرية "مبنية على أسس لغوية متطورة قوامها التمييز بين اللغة والكلام تمييزا يضاهي في دقته واستحكام نتائجه ما وصل إليه علم اللسانيات الحديثة من آراء في هذه المسألة .(صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، 1981، صفحة 500)

فهو إذا في هذين الموضعين على الأقل قد وقع في شرك إسقاط الحداثة على التراث، فكونه ثريا بالأسس اللغوية، والمبادئ اللسانية المتطورة التي تحمل في طياتها نظرية شاملة متكاملة يحتاج إلى تثبت وإعادة نظر، خاصة وأن تمكن هذا التراث من افتكاك سبق تاريخي حسبه، يتطلب انفتاح باب الاستفادة من الآخر على مصراعيه لتوسيع المعرفة وهو نقيض فكرة "عدم تأثر التراث البلاغي العربي بالثقافات الأجنبية"(صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، 1981، الصفحات 83–84) التي يدافع عنها بشدة.

ضف إلى ذلك فإنه لا يخفى على نبيه يتفحص حديث الناقد حول الجاحظ أن يتبين بعض المبالغة في تنصيب أثره "كحدث"، واعتبار فكره طفرة في التفكير البلاغي العربي الذي يتوزع على قرون مديدة. فمن المعقول منهجيا ومنطقيا أن كل قفزة حضارية مدينة إلى تراكم جملة من العوامل، قد يكون من بينها نبوغ مفكر أو باحث بعينه إلا أن إسناد سمة الطفرة إليه يعارض الموضوعية "فلا يمكن أن تكون المباحث البلاغية قد نشأت دفعة واحدة على يد مؤلف واحد. ولكن الجاحظ، مع ذلك، هو الواضع الرسمي الأول لهذا النوع من الأبحاث ...وهل نحن على علم دقيق برجال العلم أيام الجاحظ، وبعلم من تتلمذ عليهم، أو قرأ كتبهم، واستفاد منهم، حتى نقطع القول بأن أبحاثه طفرة مفكر؟"(جاحظ، 1982، صفحة 229).فالأمر لا يحتسب للناقد حتما إنما عليه.

شيء آخر يشير إليه حافظ الجمالي كمأخذ على الدكتور حمادي صمود، فرغم أنه يشير بوضوح كما ورد سابقا في هذا البحث إلى أهمية تعقل الناقد في استعمال أجهزته المفهومية استعمالا يتلاءم مع المدونة التراثية دون قسرها على الدخول في أوعية حداثية قد تضيق أو تتسع، ودون تقويلها ما ليس فيها وقسرها على الخضوع لأدوات وآليات تخالفها طبيعة ومنهجا، إلا أنه لم يوضح ويكشف للقارء طبيعتها، "فما هي هذه الأجهزة تماما، ومات هي عدتها من المفاهيم والمصطلحات، وأين استخدمت؟ وكيف؟ وماذا كان يحدث لو لم تستخدم استخداما

معتدلا؟"(صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، 2012، صفحة 80)فلعله كان من الواجب أن يوضح للقارئ منذ البداية معنى الأجهزة المفهومية، وما تتكون منه من أدوات مفاهيم.

أما منذ أواسط التسعينات فقد كان للدكتور حمادي صمود نقلة في تجديد الدرس البلاغي وهو يطرق باب البلاغة الجديدة أو الحجاج ، فقد ترأس فريق بحث تكون من مجموعة من خيرة الباحثين في الجامعة التونسية في الحقل النقدي البلاغي ،وكان ذلك بجامعة منوبة ،حيث ؟أخذ حمادي صمود بمعية فريقه على عاتقهم تتبع نظريات الحجاج وكانت أول ثمار أبحاثهم وجهودهم كتاب جماعي تحت عنوان "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية " الصادر سنة 1998 ، وهو المؤلف الذي قدم له حمادي صمود ببحث طويل وصف فيه البلاغة الجديدة أو الحجاج بأنه" أدق مواضيع الدرس البلاغي و أكثرها أهمية بالنسبة إلينا" (صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، 2012، صفحة 80)ذلك أنها مسرح تتداخل فيه حقول معرفية متعددة فبلاغة الحجاج تعنى بدراسة جميع السياقات المحيطة بالخطاب أو القول من متكلم، ومتلقي ،وسياقات ثقافية و اجتماعية، ولغوية تاريخية من اجل فهمه و تأويله.

يركز الدكتور حمادي صمود أيضا في المصنف الجماعي " أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية" على تقديم نظرية الحجاج تقديما واضحا للقارئ العربي خاصة، فيعرف بالمصطلح مركزا على الخلفية المعرفية والجذور التاريخية للنظرية كما يفرق بين الخطابة الغربية (الحجاج) والبلاغة العربية، حيث يستنتج أن بينهما فروقا جوهرية من حيث دواعي النشأة، والفروع التي تقوم عليها الخطبة والهدف من إنشاء كليهما.

4. **خاتمة:**

يخلص البحث في ختامه إلى جملة نتائج أهمها:

- تختلف آراء المحدثين حول التجديد، إلا أن المتفق عليه أنه يجب أن ينطلق من التراث في ذاته بغية تخليصه مما علق به من آفات وبعث ما يستحق منه الاستمرار.
- إن جمود البلاغة العربية وتعقيدها، وإغراقها في المعيارية وغلبة النظرة الإجتزائية عليها، من أهم المشكلات التي دعت النقاد إلى السير قدما في سبيل التجديد.
- انقسمت الدراسات المراجعة للتراث البلاغي العربي من حيث المنهج في غالبيتها بين دراسات تاريخية وصفية كما هو الحال عند "شوقي ضيف"، وأخرى سلكت نهجا بنيويا لسانيا من روادها "حمادي صمود."

- باشر الناقد حمادي صمود التراث من منطلق التفاعل بينه وبين الحداثة مستنيرا بالمفاهيم اللسانية والبنيوية الحديثة محاولا استكشاف غوامض التراث عن طريق المزاوجة بين النظرة التاريخية التطورية وهو يرصد تطور الفكر البلاغي العربي، والنزعة الآنية التأليفية لربط القضايا ببعضها وتحليلها.
- أسهمت الابحاث اللسانية في إرساء قواعد قراءة جديدة للتراث البلاغي اعتمادا على اللغة ومستوياتها.
- يكشف كتاب التفكير البلاغي عند العرب لحمادي صمود عن وجود أبعاد حداثية في التراث البلاغي العربي، والتي تبلورت أساسا في النظرية البنيوية.
- وقع الناقد "حمادي صمود– "رغم حرصه –في نوع من الإسقاط وهو يسم بعض الآراء في المدونة البلاغية العربية بالفتح المبين في الدرس اللساني الحديث.
- كان الإهتمام بالبلاغة الجديدة من أو الحجاج من أهم محطات الفكر النقدي البلاغي لدى حمادي صمود فقد حاول جاهدا استثمار مفاهيم ومضامين الحجاج كأداة لاستنطاق التراث البلاغي العربي، واستكناه مقولاته التي تحمل في طياتها ما يثري الدراسات النقدية المعاصرة تنظيرا وإجراء من جهة، ويفيد واقع الخطاب الأدبي ويوسع آفاقه من جهة أخرى.

5. قائمة المراجع:

- الجمالي جاحظ. (1982). ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب اسسه وتطوره الى القرن السادس. مجلة الموقف الأدبي(136,137).
- أمين الخولي. (1961). مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب (الإصدار 1). القاهرة: دار المعرفة.
- حمادي صمود. (1981). التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة). منشورات الجامعة التونسية، تونس: منشورات الجامعة التونسية، تونس.
- حمادي صمود. (1988). الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة. تونس: الدار التونسية للنشر.
- حمادي صمود. (2012). من تجليات الخطاب البلاغي. المملكة العربية السعودية: مكتبة المتنبي.
- حمادي صمود. (2015). البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب. تونس: المنشورات الجامعية بمنوبة.

- عماد عبد اللطيف. (2021). البلاغة الجديدة مساوات ومقاربات. الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- محمد العمري. (1999). البلاغة العربية أصولها وامتدادتها. لبنان: أفريقيا الشرق.
- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي. (بلا تاريخ). لسان العرب (الإصدار 1). لبنان: دار صادر.
- محمد عبد المطلب. (1994). البلاغة والأسلوبية. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.
- محمد عبد المطلب. (2007). البلاغة العربية قراءة أخرى. مصر: دار نوبار للطباعة.
- محمد عيد. (1989). قضايا معاصرة في الدراسات اللغوية والأدبية (الإصدار 1). القاهرة: عالم الكتب.
- محمد كريم الكواز. (2008). البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد. لبنان: الانتشار العربي.